

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَآبِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 28]

❖ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما ذكرت الآية السابقة أحوال الثمرات وتنوعها، واختلاف جدد الجبال وتنوع ألوانها؛ للإيماء إلى اختلاف حال المؤمنين والكافرين، وأنهم على درجات متباينة - ناسب أن يذكر في هذه الآية اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام، التي هي مختلفة باختلاف الثمرات، ثم بين أن من يستجيب لهذه الأدلة والبراهين هم العلماء الباحثون عن الحق، المستدلون بنواميس الكون، وأنهم الصنف المتميز على غيرهم؛ لأنهم الواصلون إلى المقصد الذي كان لأجله هذا الاختلاف والتباين.

الانتقال من
ذكر الاختلاف
في الثمرات
والجبال، إلى
اختلاف الناس
والحيوانات

❖ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿وَالْدَّوَآبِ﴾: (دب) أصل يدل على حركة على الأرض أخف من المشي⁽¹⁾، والدابة: كل ما دب على الأرض⁽²⁾، وبعضهم يخصها بالفرس⁽³⁾، والمراد بها في الآية: كل ما يدب على الأرض⁽⁴⁾.

(2) ﴿وَالْأَنْعَمِ﴾: (نعم) أصل يدل على ترفه وطيب عيش وصلاح، ومن ذلك: النعمة، وهي ما ينعم الله تعالى به على عباده من مال وعيش⁽⁵⁾، والنعم: الإبل، لما فيها من الخير والنعمة⁽⁶⁾، والجمع: أنعام، وتطلق الأنعام على الإبل والبقر والغنم⁽⁷⁾، وهي المرادة هنا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دب).

(2) الجوهري، الصحاح: (دب).

(3) الزاغ، للفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دب).

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6 / 482.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).

(7) الزاغ، للفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نعم).

(3) ﴿يَخْشَى﴾: (خشى) أصلٌ يدلُّ على خوفٍ⁽¹⁾، ومن ذلك: الخشية، وهي أشدُّ الخوفِ⁽²⁾، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عن علمٍ بما يُخشَى منه⁽³⁾، وهو المعنى المرادُ هنا.

(4) ﴿عِبَادِهِ﴾: (عبد) أصلٌ يدلُّ على لينٍ وذلٍّ⁽⁴⁾، ومن ذلك: العبوديَّةُ، وهي إظهارُ التَّذَلُّلِ⁽⁵⁾، والعبدُ يقالُ على أَضْرَبٍ؛ الأوَّلُ: عبدٌ بحُكْمِ الشَّرْعِ؛ وهو الإنسانُ الَّذِي يَصِحُّ بَيْعُهُ وَشِرَاؤُهُ مِنَ النَّاسِ، الثَّانِي: عبدٌ بالإِيجَادِ، وذلكَ لا يكونُ إلَّا لِلَّهِ، والثَّالِثُ: عبدٌ بِالْعِبَادَةِ وَالخِدْمَةِ، والنَّاسُ في هذا نوعان: عبدٌ لِلَّهِ مُخْلِصٌ، وعبدٌ لِلدُّنْيَا مُعْتَكِفٌ على خِدْمَتِهَا ومِرَاعَاتِهَا⁽⁶⁾.

(5) ﴿الْعَلَمَتُّوْا﴾: (علم) أصلٌ يدلُّ على نَقِيضِ الجَهْلِ⁽⁷⁾، والعِلْمُ: إدراكُ الشَّيْءِ بِحَقِيقَتِهِ⁽⁸⁾، والعالمُ: ضِدُّ الجَاهِلِ، والجمعُ: علماءٌ، والمرادُ بالعلماءِ هنا: العلماءُ بِاللَّهِ وبالشَّرِيعَةِ⁽⁹⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ دَلِيلٍ آخَرَ مِنْ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ بَعْدَ دَلِيلِ اخْتِلَافِ الثَّمَرَاتِ وَالْجِبَالِ، فيقول: وَمِنَ الْبَشَرِ وَمَا دَبَّ عَلَى الْأَرْضِ وَالْأَنْعَامِ خَلَقَ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كاختلافِ ألوانِ الثَّمَرَاتِ وَالْجِبَالِ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ حَقَّ خَشْيَتِهِ الْعُلَمَاءُ بِهِ وَبِصِفَاتِهِ وَشَرِيعَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ غَالِبٌ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، غَفُورٌ لِمَنْ تَابَ وَأَنَابَ إِلَيْهِ.

انتفاع العلماء
بالدلائل
والبراهين

(1) ابن فارس، معاني اللغة: (خشي).

(2) السمين الحلي، عمدة الحفاظ: (خشي).

(3) الرَّاغِب، المفردات: (خشي).

(4) ابن فارس، معاني اللغة: (عبد).

(5) السمين الحلي، عمدة الحفاظ: 20 / 3.

(6) الرَّاغِب، المفردات: (عبد).

(7) الخليل، العين: (علم).

(8) الرَّاغِب، المفردات، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ: (علم).

(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 304 / 22.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

نوع الواو ودلائلها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ عاطفة لهذه الجملة على جملة ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾، فحكمها حكمها، من حيث احتمال الاستئناف والعطف على جملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾⁽¹⁾، وأياً ما كان، ففيها تنبيه على دليل آخر من دلائل قدرة الله ﷻ، فبعد أن بين اختلاف ألوان الثمرات، وألوان جدد الجبال، ذكر اختلاف ألوان الناس والدواب والأنعام، لبيان أن سنته تعالى في خلقه أن يكون هناك تباين ظاهر، دال على التباين الباطن؛ فإن اختلاف الألوان مرتبط باختلاف الباطن وما يحويه من خصائص.

اختلاف الألوان
سنة كونية في
المخلوقات كلها

فائدة التعبير بالجملة الاسمية:

جاء التعبير بالجملة الاسمية في قول الباري ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾؛ عن الناس والدواب والأنعام، متفقاً مع التعبير بالاسمية كذلك في اختلاف ألوان الجدد؛ لأن اختلاف الناس والدواب والأنعام في الألوان أمر ثابت لا يتغير، وإنما يحصل مرة واحدة عند الخلق، وعند تولد النسل، فعبّر عنه بما يدل على الثبات والدوام⁽²⁾، وفي ذلك تنبيه على أن هذا الدليل من دلائل قدرته ﷻ ثابت مشاهد في كل حين، وهو معطوف على مثله، ليحصل التباين في الدواب، والاتفاق في ثبات مظهرها ولونها، وأن هذا اللون الثابت لا يضر بصاحبه، إذ هو اختيار الله ﷻ، ولذلك جاء التنبيه على خشية العلماء لله تعالى، لما يعلمونه من الحكم المبثوثة في الخلق، فإن ثبات الألوان لا يؤثر في إصلاح السلوك وتعديل الأخلاق.

ثبات الألوان لا
يؤثر في إصلاح
السلوك ولا في
تعديل الأخلاق

(1) الألوسي، روح المعاني: 11/ 362، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 303.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 151، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 16/ 54،

وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 303.

نوع (من) ودلائلها:

اختلاف أصناف
الحيوان في
الألوان،
كاختلافها في
الجبال

(مِنْ) في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾⁽¹⁾ تبعيضيَّةٌ، والمعنى: أَنَّ الْمُخْتَلِفَ أَلْوَانُهُ بَعْضٌ مِنَ النَّاسِ، ومجموعُ المختلفاتِ كُلُّهُ هو النَّاسُ كُلُّهُمْ، وكذلك الدَّوَابُّ والأنعامُ، وهو نظمٌ دقيق دعا إليه الإيجاز⁽²⁾، فمعنى الكلام: أَنَّ النَّاسَ أِبْعَاضُ، وكلُّ بعضٍ منهم له لونٌ يختلف في أصله عن بقية الأبعاض، وله درجة يختلف عن بقية درجات البعض الواحد، وحمل (مِنْ) على التبعيض مأخوذٌ من كلام الزَّمَخْشَرِيِّ: "ومنهم بعضٌ مختلفٌ أَلْوَانُهُ"⁽³⁾، كما قال: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾، لكن جاء النظم هنا موجزًا غير مفصَّلٍ كما جاء في الجبال.

معنى التعريف:

الاختلاف
عامٌ في جنس
النَّاسِ والدَّوَابِّ
والأنعام

الظاهرُ أَنَّ تعريفَ الألفاظِ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ للجنسِ المفيدِ للعمومِ؛ فمقامُ الاستدلالِ على قدرةِ اللهِ يقتضي التعميمَ في المذكوراتِ؛ لِما يُؤْذِنُ بِهِ مِنْ شِيوعِ الاختلافِ واشتغاره، والمرادُ العمومُ من حيثِ مجموعِ كلِّ جنسٍ، فيشمل جميعَ الأفرادِ بقطعِ النظرِ عن لونِ كلِّ بعضٍ منها.

نكتة تقديم ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾:

المسارعةُ إلى
مواطنِ الاعتبارِ
دأبُ العقلاءِ

قَدَّمَ الجارَّ والمجرورُ ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ على ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾؛ للاهتمامِ به؛ إذِ النَّاسُ والدَّوَابُّ والأنعامُ مواطنٌ للاعتبارِ والتفكيرِ، فحقُّها التقديمُ في الذكرِ، وللتشويقِ للمؤخَّرِ؛ حتَّى على التأمُّلِ والنَّظَرِ، ولتسويغِ الابتداءِ بالنكرة⁽³⁾، ولأنَّ في ﴿النَّاسِ﴾ وما عَظِفَ عليه نوعٌ طويلٌ، فربَّما يُخِلُّ تأخيرُهُ بانتظامِ الكلامِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 303 / 22.

(2) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكشاف: 151 / 7.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 303 / 22.

نُكْتَةُ عَطْفِ ﴿وَالْدَّوَابِّ﴾ عَلَى ﴿النَّاسِ﴾:

لفظُ ﴿وَالْدَّوَابِّ﴾ يشملُ بمعناه اللُّغويَّ الإنسانَ وغيرَهُ، وفي عطفِهِ على ﴿النَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ﴾ - وهو مِنْ عطفِ العامِّ على الخاصِّ من حيثِ اللُّغة - إشارةٌ إلى شرفِ جنسِ الإنسانِ وفضلِهِ⁽¹⁾، وإذا حُمِلَ لفظُ الدَّوَابِّ على المعنى العرفيِّ، فالعطفُ على بابِهِ، فيكون الدَّوَابُّ لما شاع استعمالُهُ العرفيُّ في الخيلِ والبغالِ والحميرِ، فهو بهذا الاعتبارِ جنسٌ مختلفٌ عن جنسِ الدَّوَابِّ، وفي ذلك تنبيهٌ لهذا المُفضَّلِ على غيره إلى ضرورةِ التَّفَكُّرِ في خلقِهِ؛ لِيَتَفَتَّنَ لما فيه مِنْ دلائلِ قدرةِ اللَّهِ تعالى وإرادَتِهِ، فلا يصرفُ العبادةَ لغيرِ مُسْتَحِقِّهَا.

نُكْتَةُ عَطْفِ ﴿وَالْأَنْعَمِ﴾ عَلَى ﴿وَالْدَّوَابِّ﴾:

لفظُ ﴿وَالْدَّوَابِّ﴾ من حيثِ اللُّغةُ يشملُ الأنعامَ، وفي عطفِها عليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ﴾، وتخصيصُها مِنْ بَيْنِ الدَّوَابِّ بالذكرِ - وهو مِنْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ - تنويهٌ بشأنِها⁽²⁾؛ وإذا جعلنا الدَّوَابَّ من حيثِ العُرفُ لما يَرَكَّبُ؛ فلها منافعٌ خاصَّةٌ، وهي قُرْبِيَّةُ مَنْ النَّاسِ، ولذلك قيلَ: ﴿وَالْأَنْعَمِ﴾؛ ليعمَّ الكلامُ الكلَّ صريحاً⁽³⁾، فيكون الكلامُ من بابِ التَّقْسِيمِ؛ فَعُطِفَ على النَّاسِ مركوباتُهم، وعطفُ على المركوباتِ الأنعامَ التي ينتفعون منها في مأكَلِهِم ومشربِهِم وملبسِهِم.

سَرُّ تَرْتِيبِ الْمَذْكُورَاتِ:

لما ذَكَرَ تعالى شأنَهُ أصنافَ الحيوانِ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ﴾؛ بدأ بالأشرفِ منها، وهو الإنسانُ، ثمَّ ذَكَرَ الدَّوَابَّ؛ لأنَّ منافعَها في حياتِها تتمثَّلُ في الرُّكُوبِ والنُّقْلِ والحِرائِثِ،

تفضيلُ جنسِ
الإنسانِ على
سائرِ جنسِ
الحيوانِ

عطفُ المنافعِ
الضروريَّةِ على
المنافعِ الحاجيَّةِ

الأشرفُ جنساً
والأبهى لوناً
أحقُّ بالتَّقديمِ
في الذِّكْرِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 437.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 437.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 47، والشَّريبي، الشراح المنير: 3/ 325.

والأنعام منفعتها في المشرب والملبس والمأكل، فجاء الترتيب في ذكر الناس باعتبارهم هم المقصودين في الكلام، ثم الدواب لأنها أظهر الدواب في الألوان، ويحرص الإنسان على اقتناء الأجل لونها، ثم الأنعام التي هي دون الدواب في اهتمام الإنسان بلونها، فقد لا باعتبار أهمية المنافع، بل باعتبار الأبرز في التفضيل في الألوان، فقد يتغاضى الإنسان عن لون الأنعام ما لا يتغاضى عن لون الخيل، وقد يتغاضى عن لون الخيل ما لا يتغاضى عن لون الزوجة، فبهذا الاعتبار كان التقديم والترتيب.

بلغة الإيجاز بالحذف:

في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ إيجازاً بالحذف، وذلك أن قوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ﴾ قبله محذوف، إليه يعود الضمير، تقديره: (والأنعام - خلق - مختلف ألوانه) وهذا تقدير ابن عطية⁽¹⁾، وإنما حذف لدلالة السياق عليه، والنظم بُني على الإيجاز إذا دل الكلام على المراد، وقدره الزمخشري: "ومنهم بعض مختلف ألوانه"⁽²⁾، وتقدير الزمخشري مأخوذ من السباق، من دلالة حرف (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾، وتقدير ابن عطية مأخوذ من اللحاق، وذلك ليصح عود الضمير، لأنه قال: ﴿أَلْوَنُهُ﴾ لا ألوانها، وهذا من بديع التقدير وتنوعه المنتزع من سياق الكلام بسياقه ولحاظه.

نكتة تذكير (مختلِف):

ذكر لفظ: ﴿مُخْتَلِفٌ﴾؛ لأن الإنسان من جملة المذكورين في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ﴾، والتذكير أنسب به؛ لكونه عاقلاً، ولأن التذكير أعلى وأولى⁽³⁾، ولأن الكلام عائد على محذوف مذكر.

تقدير المحذوف
منتزع من سياق
الكلام ولحاظه

التذكير
أنسب بسياق
المذكورين

(1) ابن عطية، للحزر الوجيز: 437/4.

(2) الزمخشري، الكشاف: 151/7.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 236/26.

بلغة اسم الإشارة للبعيد:

الإشارة في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ لما سبق ذكره من اختلاف الثمرات والجبال⁽¹⁾، أي: اختلفت ألوان الناس والدواب والأنعام مثل اختلاف ألوان الثمرات وجدد الجبال، وقد استعمل اسم الإشارة للبعيد؛ لتفخيم شأنه وتعظيمه؛ لما في تلك المذكورات من الدلالة على باهر قدرة الله تعالى وإرادته، مع كونها في غاية الظهور، بحيث لا تخفى على أحد، أي: اختلافًا بينًا مثل ذلك الاختلاف السابق في وضوحه وبيانه ومقصود ذكره.

تعيين تعلق ﴿كَذَلِكَ﴾ من عدمه:

الظاهر أن قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ متعلق بما قبله، أي: مختلف اختلافًا مثل الاختلاف في الثمرات والجدد⁽²⁾، ويحتمل أنه متعلق بما بعده، والمعنى: مثل ذلك المطر والاعتبار في مخلوقات الله تعالى واختلاف ألوانها، يخشى الله العلماء⁽³⁾، ويرد عليه أن ما بعد ﴿إِنَّمَا﴾ مانع من العمل فيما قبلها⁽⁴⁾، ويرى ابن عاشور أن يكون ﴿كَذَلِكَ﴾ ابتداء كلام، يُنزل منزلة الإخبار بالنتيجة عقب ذكر الدليل، والمعنى: كذلك أمر الاختلاف المشاهد في اختلاف ألوان المخلوقات، وهو توطئة لذكر العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، أي: إنما يخشى الله من البشر المختلفة ألوانهم العلماء منهم، وأوثر هذا الأسلوب في الدلالة تخلصًا للتبويه بأهل العلم والإيمان، لينقل إلى تفصيل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾، وأسلوب ﴿كَذَلِكَ﴾ من فصل الخطاب؛ لذلك يحسن الوقف على ما قبله ويستأنف ما

إلحاق
الواضحات
بالواضحات،
إرغاماً لأنوف
المكذّبين وكبر
المعاندين

تنوُّع بيان
متعلقات
القيود، دلالة
على اتساع
المعنى المطلوب

(1) الرّمخشي، الكشف: 3/ 610.

(2) ابن عطية، الحزر الوجيز: 4/ 437.

(3) ابن عطية، الحزر الوجيز: 4/ 437.

(4) السمين، الدر للصون: 9/ 231.

بعده، وأما جعل ﴿كَذَلِكَ﴾ من توابع الكلام السابق فلا يناسب نظم القرآن لضعفه⁽¹⁾.

بلاغة الاستئناف بجملته القصير:

العلم بالله
رأس الخشية
منه

إذا اعتبرنا أنَّ ﴿كَذَلِكَ﴾ ابتداء كلام؛ فجملته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ مستأنفة عن جملة ﴿كَذَلِكَ﴾، وإذا علم ذلك دل بالالتزام على أنَّ غير العلماء لا تتأتى منهم خشية الله، فدل على أنَّ البشر في أحوال قلوبهم ومداركهم مختلفون⁽²⁾، ولما كان شرط الخشية معرفة المخشي، والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه؛ جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، بعد ذكر أفعاله تعالى الدالة على كمال قدرته⁽³⁾؛ للدلالة على أنَّ العلماء قد عرفوه ﷻ، وعلموا بصفاته وأفعاله، وهو أيضاً تكملة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: 18] بتعيين من يخشاه ﷻ من الناس، بعد بيان اختلاف مراتبهم⁽⁴⁾.

بلاغة القصير:

الخشية من الله
رأس استزادة
العلم بالله

القصير في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قصر صفة على موصوف، أي: قصر الخشية على العلماء، وهو قصر إضافي، أي: لا يخشاه الجهال، وهم أهل الشرك، فالمؤمنون يومئذ هم العلماء، والمشركون جاهلون، نفيت عنهم خشية الله⁽⁵⁾، والخشية هي خصيصة العلماء، فمن علم خشي الله تعالى، ومن خشي من الله تعالى استزاد من العلم بالله تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 304 / 22.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 304 / 22.

(3) الزمخشري، الكشاف: 610 / 3.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 151 / 7.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 304 / 22.

غرض استعمال أداة ﴿إِنَّمَا﴾ في القصر:

اختيرت أداة ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله جلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ لَأَنَّ الْحُكْمَ الَّذِي تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِمَّا مِنْ شَأْنِهِ أَلَّا يَجْهَلَهُ الْمُخَاطَبُ وَلَا يُكْرِهُهُ⁽¹⁾، فتنفِيدُ هُنَا أَنَّ قَصَرَ الْخَشْيَةِ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَمْرٌ مَعْلُومٌ، لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ، وَلَأَنَّ أَحْسَنَ مَوَاقِعِ (إِنَّمَا) التَّعْرِيزُ⁽²⁾، وَفِيهَا هُنَا تَعْرِيزٌ بِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ جُهْلَاءُ بِاللَّهِ وَبِصِفَاتِهِ، وَلِذَلِكَ لَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ، وَلَا يَخَافُونَ عِقَابَهُ⁽³⁾.

تشريف العلماء
والتعريض
بالمشركين

بلادة استعمال مفردة الخشية:

آثَرَ النِّظْمُ الْكَرِيمُ اسْتِعْمَالَ مَفْرَدَةِ الْخَشْيَةِ دُونَ الْخَوْفِ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ لِأَنَّهَا أْبْلَغُ؛ فَهِيَ أَشَدُّ الْخَوْفِ، إِذْ تَدُلُّ عَلَى فَرْطِ خَوْفِ الْعُلَمَاءِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِأَنَّهَا تُطْلَقُ حِينَ يُرَادُ التَّنْبِيهُ عَلَى الْعِلْمِ بِمَا يُخْشَى مِنْهُ، فَيَكُونُ فِي التَّعْبِيرِ بِهَا مَدْحٌ لِلْعُلَمَاءِ بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيَخْشَوْنَهُ عَنْ عِلْمٍ وَهْدَى، مَعَ مَنَاسِبَتِهَا لِلسِّيَاقِ، فَالْخَشْيَةُ تُسْتَعْمَلُ فِي غَالِبِ الْاسْتِعْمَالِ الْقِرَآئِيِّ فِي تَفَاصِيلِ الْمَعْلُومِ، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِذِكْرِ الْعُلَمَاءِ.

العلماء أخشى
الناس لمزيد
علمهم بالله

نكتة التعبير بالمضارع:

جِيءَ بِصِيغَةِ الْمَضَارِعِ فِي قَوْلِ الْبَارِي ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ خَشْيَةَ الْعُلَمَاءِ لِلَّهِ ﷻ مُتَجَدِّدَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ الْعَارِفِينَ بِقَدْرِ مَنْ يَخْشَوْنَهُ، وَهُمْ يُجَدِّدُونَ الْخَشْيَةَ كُلَّمَا أَبْصَرُوا دَلِيلًا مِنْ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى، وَلَمَّا كَانَ السِّيَاقُ فِي ذِكْرِ الْأَدْلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى، الْمَوْصِلَةَ إِلَى الْيَقِينِ بِالتَّوْحِيدِ الْمُسْتَحَقُّ لِلَّهِ تَعَالَى دُونَ سِوَاهِ، نَاسَبَ التَّعْبِيرُ

العلم الذي لا
يزيد ينقص،
والخشية التي لا
تقوى تتلاشى

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 58 / 16.

(2) التَّنَازُلِيُّ، لِخَتَصَرٍ، ص: 345.

(3) الطَّبَّيِّ، فَتَوَحُّ الْغَيْبِ: 648 / 12.

بالمضارع مزيداً في مدح العلماء، فعلمهم لا يتوقف، بل يزداد في العبادة الفكرية والقلبية والسلوكية، والعلم الذي لا يزيد ينقص، والخشية التي لا تقوى تتلاشى.

مناسبة ذكر لفظ الجلالة:

ذو العظمة
والجلال
مستحق
للخشية الكاملة

جاء التعبير بلفظ الجلالة في قول الباري ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ لمناسبته مقام الخشية، من حيث إن هذا اللفظ منبئ عن صفات الجلال التي تثير المهابة والوجل في القلوب، لا سيما وقد تقدم ذكر اختلاف المخلوقات، الذي لا يقدر عليه إلا المتصف بصفات الكمال، ومنها القدرة التامة، والإرادة البالغة، وهو المناسب للسياق الكلي، إذ ذكر عنوان الألوهية هو ذكر المقصود بعد ذكر الوسائل، فإن غاية المعرفة توحيد الله تعالى وإجلاله دون سواه.

نكتة تقديم لفظ الجلالة:

أهل الخشية
العلماء
العارفون بالله
دون غيرهم

قدم لفظ الجلالة على العلماء في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، مع أن الأصل تقديم الفاعل على المفعول؛ لأن المراد حصر الفاعلية، والمعنى: الذين يخشون الله من بين عبادهم العلماء دون غيرهم⁽¹⁾؛ لأن المقصور عليه في ﴿إِنَّمَا﴾ هو المؤخر⁽²⁾، ولو أحر لفظ الجلالة لكان الحصر في المفعولية، وكان المعنى: العلماء لا يخشون إلا الله⁽³⁾، وهو معنى صحيح في نفسه، لكنه غير مراد هنا؛ لأن المقام لبيان الخاشعين، والإخبار بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم، لا لبيان المخشي⁽⁴⁾.

نوع ﴿مِنْ﴾ ودلالاتها:

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

(1) الزمخشري، الكشاف: 611 / 3، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 258 / 4.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 648 / 12، والتفتازاني، للختصر، ص: 348.

(3) الزمخشري، الكشاف: 611 / 3.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 648 / 12.

للبيان، والمعنى؛ إنّما يخشى الله عباده العلماء، أو للتبويض، والمعنى؛ إنّما يخشى الله من الناس العلماء.

بلاغة استعمال لفظ العباد مضافاً:

أُضيفَ لفظُ العبادِ إلى الضميرِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ للدلالة على أنّ كلّ مَنْ سواه تعالى في قبضته، وتحت قهره⁽¹⁾، وفي ذلك إيماءٌ إلى علّة الخشية، وأنّ الواجب على جميع العبادِ الخشية منه سبحانه؛ لأنّهم مملوكون ومربوبون له، فأول علّة جعلت العلماءَ يخشون الله تعالى حقّ الخشية، معرفتهم بأنّهم عبادٌ لله تعالى، ومقتضى توحيد الربوبية التسليم بمقتضيات توحيد الألوهية.

نكتة تعريف لفظ ﴿الْعُلَمَاءُ﴾:

الظاهر أنّ تعريف العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾؛ للجنس، والمراد: العلماء به تعالى وبصفاته وشريعته، العاملون بعلمهم، وكأنّ ما سواهم ليس بعالم، فالعلم الحقيقي هو العلم بالشرع المورث للخشية⁽²⁾، وأمّا العلماءُ بعلوم لا تتعلق بمعرفة الله وثوابه وعقابه فليست علومهم بمقربة لهم من خشية الله؛ لأنّ العالم بالشرعية لا تلبس عليه حقائق الأسماء الشرعية، فهو يفهم مواقعها حقّ الفهم، ويرعاها في مواقعها، ويعلم عواقبها من خير أو شرّ، وغير العالم إنّ اهتدى بالعلماء فسعيه مثل سعي العلماء، وخشيته متولدة عن خشيتهم⁽³⁾.

نكتة جملة التعليل:

قول الحقّ جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوب الخشية منه ﷻ؛ لدلالته على أنّه معاقب للمصير على طغيانه، غفورٌ

مقتضى توحيد
الربوبية
التسليم
لمقتضيات توحيد
الألوهية

العلم بالله هو
الموصل لمقام
الخشية قل أو
عظم

من عزّ غفور
وجبت خشيته

(1) البقاعي، نظم الدرر: 48 / 16.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 59 / 16.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 304 / 22.

للتَّائِبِ عَنْ ظُلْمِهِ وَعَصِيَانِهِ⁽¹⁾؛ فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجبُ الخوفَ التَّامَّ، وكونه غفوراً لما دونَ ذلك يوجبُ الرَّجاءَ البَالِغَ⁽²⁾، فالختامُ بهذينِ الوصفينِ يناسبُ ابتداءَ الكلامِ⁽³⁾، ويحتملُ أن يكونَ تكميلاً للدَّلالةِ على استغناءِ اللهِ تعالى عن إيمانِ المشركينَ، ولكنه يريدُ لهم الخيرَ⁽⁴⁾.

دلالة التأكيد:

أَكَّدَ قولُ الباري ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ مضمونه، وأنه أمرٌ ثابتٌ مُنْخَرِطٌ في سِلْكِ الحقائقِ اليقينيَّةِ، وأنه ﷻ لا يَعْسُرُ عليه شيءٌ، وهو أهلٌ لأن يُخْشَى⁽⁵⁾، وفي ذلك مزيدٌ مبالغةٍ في مقامِ التَّغْيِبِ والتَّرهيبِ؛ فالتَّأكيدُ تأكيدٌ للحقائقِ للاستزادةِ منها عند أهلِ الطَّاعةِ، وتحصيلها عند غيرهم.

بلاغة إظهار ما حقه الإضمار:

مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أن يقالَ: (إنَّه عَزِيزٌ غَفُورٌ) بالإضمار؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ، لكنَّ عُدَلَ إلى الإظهارِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾؛ لتأكيدِ ثبوتِ الصِّفَتَيْنِ؛ فلفظُ الجلالةِ دالٌّ على جميعِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ⁽⁶⁾، ولتكونِ الجملةُ مستقلةً بمقصودِها، فالأولى بيانٌ لاستحقاقه الخشية، وهنا للجمع بين التَّغْيِبِ والتَّرهيبِ، ففيها معنى الاحتراسِ أن يُظَنَّ أنَّ الخشية تدعو للرُّكونِ والكسلِ، بل تدعو إلى مزيدِ العملِ، ولتأكيدِ استقلالِ الجملةِ بحيثُ تَصْلُحُ لأن تجري مَجْرَى الأمثالِ السَّائِرَةِ.

الله تعالى أهلٌ
لأن يُخْشَى وأهلٌ
لأن يُعْبَدَ

الخشية لا تدعو
إلى الرُّكونِ
والكسلِ، بل إلى
مزيدِ العملِ

(1) البضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 258، وأبو السَّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 151.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 26/ 236.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البضاوي: 16/ 60.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 305.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 49.

(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 49.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ صِفَةِ الْعَزِيزِ عَلَى الْغُفُورِ:

لَمَّا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَزِيزٌ﴾ مُرْهَبًا مِنْ سَطَوْتِهِ، مُوجِبًا لَخَشْيَتِهِ؛ لِإِفْهَامِهِ أَنَّهُ لَا يَرْحَمُ الَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَهُ؛ رَغْبَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ﴾ فِي أَنَّهُ يَمْحُو ذُنُوبَ مَنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْهُمْ ⁽¹⁾، فَأَفَادَ الْكَلَامُ التَّنْبِيهَ عَلَى فَرْطِ رَحْمَتِهِ ﷺ وَلُطْفِهِ بِعِبَادِهِ، فَفِيهَا احْتِرَاسٌ عَنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ الْعِزَّةَ مَانِعَةٌ مِنَ الْإِقْبَالِ لَطَلَبِ الْمَغْفِرَةِ، مَعَ مَا فِي تَأْخِيرِ ﴿غَفُورٌ﴾ مِنْ مَرَاعَاةٍ لِتَلَاوُمِ الْفَوَاصِلِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِصِیْغَةِ الْمُبَالَغَةِ:

جِيءَ بِصِیْغَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾؛ لَزِيَادَةِ التَّرْغِيبِ فِي الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَالتَّرْهِيْبِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، وَالحَثِّ عَلَى خَشْيَتِهِ ﷺ؛ إِقَامَةً لِلْحُجَّةِ عَلَى الْعِبَادِ، فَكَمَا أَنَّهُ الْمُخْشَى دُونَ سِوَاهُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، فَهُوَ كَذَلِكَ الْعَزِيزُ دُونَ سِوَاهُ، وَالْغُفُورُ دُونَ سِوَاهُ، فِي تَحْقِيقِ مَعَانِي الْعِزَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ الْحَقِيقِيَّةِ، فَلَا عِزَّةَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَغْفِرُ أَحَدٌ الذَّنْبَ إِلَّا هُوَ.

التَّخْلِيَةُ مُقَدِّمَةٌ
عَلَى التَّحْلِيَةِ

اختصاصُ الله
بالعِزَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ
ومَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ
البَشَرِيَّةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 49/16، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 305/22.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والأربعون،
سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 47، 800 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك : 978-9948-731-00-9

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 47 : المجلد السابع والأربعون، سورة فاطر من الآية 15 إلى سورة يس الآية 50.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-731-00-9

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-0968178 بتاريخ 2025/01/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»